الشريعة بين رومانسية الحلم وعقبات الواقع

قـدَّم الإسـلاميون تـضحيات لا يمكـن إغفالهـا، فـأكثر المعتقلـين الـسياسيين فـي عهـد الـرئيس المخلـوع كـانوا ينتمـون إلـى التيـار الإسلامي الـذي مورست ضده سياسـة القبضة الحديديـة بقسوة لـم تكن تعبـر عن خـلاف فـي الـرأي بقدر مـا كانـت تُعبـر عن كراهيـة للأيـديولوجيا التـي يحملونهـا. كـان الإقـصاء والتـشويه للإسـلاميين سـمتين لازمتـين علـى المـستوى الـسياسي والإعلامـي والثقـافي والاقتصادي والاجتماعي، فلم يكن مسموحًا لهم بممارسـة السياسة أو تكوين أحزاب مهما كانـت منطلقاتهـا، كمـا أنهم كـانوا فـي القوائم السوداء الممنوع ظهورها فـي الفضائيات الحكوميـة والخاصـة، ولـم يسلموا من المطاردة في وظائفهم وأعمالهم، وكانت التقارير الأمنيـة تستبعد كل من له صلة بالإسلام والمسلمين، فلا يوظفون ابتداء، لقد كان حصارًا مثل حصار غزة، وحصار الصحابة الأوائل فـي شـعب أبـي طالـب، لكنـه فـي الوقـت ذاتـه أكثـر قـسوة، لأنـه كـان مغلفًـا بالشرعية والمشروعية، فهؤلاء الإسلاميون إرهـابيون ومتطرفون ومتخلفون، وهم لا يستحقون حق الإنسانية والمواطنـة فقط، بل لا يستحقون حق الحياة أيضًا!.

ولم يكن صمت المثقفين تجاه هذا الإجرام السياسي بدافع الخوف من الظلم، بل كان نابعًا عن رضا وتواطؤ بسبب الخلاف الأيديولوجي بينهم وبين الإسلاميين، وكنا ننتظر أن يُظهر هؤلاء المثقفون نوعًا من النبل والنزاهة والتعاطف، فالمثقف الحقيقي هو الذي لا يُجرِّم المخالفين له في الرأي، ولا يُحرِّم عليهم حق التعبير عن أنفسهم، لكنهم لم يكونوا ينتمون إلى طبقة المثقفين الحقيقيين بأي شكل من الأشكال، لقد كانوا غطاءً شرعيًا للاستبداد رغم حديثهم المتكرر عن الحرية، لكن الحرية في مفهوم القوم لم تكن تعني إلا حرية الإباحية، وحرية الاستهزاء بالثوابت، وقد جاءت الثورة لا لتسقط النظام فقط، بل لتسقط أيضًا العروش الورقية والأمجاد المزيفة لهؤلاء المثقفين.

قامت الثورة إذن، وتنفس الإسلاميون الصعداء، لكنهم اندفعوا بغريزة العاطفة لا بتوجيه العقل، ربما كان لهم بعض العذر، فقد كانوا جميعًا في سجن كبير يسمى نظام مبارك، وراودتهم السياسة عن أنفسهم أو بالأحرى هم الذين راودوها عن نفسها، والسياسة أكثر إغواء من المرأة في بعض الأحيان، لكن السياسة في حاجة إلى ربان ماهر يستطيع مواجهة الرياح والأمواج بحكمة وصبر وثبات، وهذه الصفات ليست متاحة لجملة البشر، لأن فقه الورق يختلف كثيرًا عن فقه الواقع، وليس كل شيخ يصلح أن يكون سياسيًا، ولهذا عزف كبار الأئمة عن ممارسة السياسة، وكان

دورهم دورًا تنظيريًا فقط، لكن لكل عصر طبيعته وملامحه التي تميزه عن غيره من العصور.

ويظل تساؤلنا مشروعًا، كيف للدعاة الذين كانوا لا يسمح لهم إلا بالحديث عن عذاب القبر وعلامات يوم القيامة، أن يتحدثوا الآن في القضايا المصيرية والكبرى؟ وكيف للدعاة الذين كانوا يعدون المظاهرات بدعة وخروجًا على الحاكم؛ أن يطلبوا منا أن نسلم لهم قيادنا، وقد أثبت الواقع فشل تصوراتهم وبطلان استدلالاتهم، ومن يضمن لنا أنهم لن يخطئوا مرة أخرى أو مرات أخر في اختبارات قادمة لا محالة، فالحتمية الجغرافية والتاريخية وحتمية التحولات، لابد أن تجربنا ونجربها وتمحصنا ونمحصها في زمن تسعى المتغيرات فيه لابتلاع الثوابت.

أليست هذه أسئلة مشروعة من حقنا أن نوجهها للتيارات الإسلامية، ومن واجبهم أن يجيبوا عليها بطريقة عملية لا بالطريقة النمطية التي اعتدناها، من أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان – ونحن بلا شك نؤمن بذلك– لكن أزمتنا مع التيار الإسلامي بشكل عام تكمن في ضبابية الرؤية التي يطرحها، فلا نكاد نميز ملامحها، والدليل على ذلك أن الإسلاميين لا يمتلكون تصورًا واضحًا ومحددًا، بل هناك الطرح السلفي والطرح الإخواني، بالإضافة إلى الجمعيات والجماعات الأخرى كجماعة أنصار السنة والجماعة الإسلامية وغيرهما من الجماعات، من حقنا أن نناقشهم ونحاورهم، نقبل

ونرفض، نتفق ونعترض، وليس من حق أحد أن يرفع في وجهنا بنادق الإرهاب الفكري بعبارات سئمنا وسئم الواقع معنا من تكرارها، من قبيل لحوم العلوم مسمومة، ورفع الملام عن الأئمة الإعلام، فقد أثبتت الثورة أن رجل الشارع ورجل المقهى قد يجاوز بفطرته ما يسمى بالعلماء والأئمة الأعلام، كما أن التجربة قد أثبتت أننا أسرفنا كثيرًا في إطلاق مثل هذه الألقاب المجانية على من لا يستحق، وأفرط بعض الشباب غير الواعي في تحويل المشايخ والدعاة إلى رجال كهنوت، يوزعون صكوك غفرانهم على من يشاءون، وكانت النتيجة كارثية على الأمة كلها.